قصة

تحلق غفيرٌ من المواطنين في ساحة كبير في مركز المدينة بدمشق، كانوا مصطفين برتلٍ طويلٍ منعكف إلى واجهة المطعم. قلّب شهاب نظره في الناس، ثم رد عينيه في خطيبته ريما وتساءل محتجًا:

-ريما...أليس؟؟

فسرقت ريما الكلمة من رأس لسانه وتحدثت:

-الطازج...ألا تذكر؟

أذكره جيدًا، لم يُخال لي "الطازج" من بين كل المطاعم يستقطب عددًا كبيرًا من الناس!!

-ولكنهم يتناولون خبرًا جديدًا، يُزعم أن نادلًا عجيبًا عُيّن فيه، فقلب المطعم رأسًا على عقب، وكأنما سحرٌ نفخه فيه فتحول إلى محل خمسة نجوم.

وقفا هما الاثنان يعتريهما فضولٌ كاسحٌ، وراقبا الحركة بانتباه مفتون، وكان ما أدهشهما مشهد البشر، وهم سعداءٌ مسرورون، في طابور قد لا يسير في ساعة أو ساعتين على أفضل تقدير، ومنهم من كان يتحدث عن "الطازج" ويشير بيده إلى اللافتة الجديدة. تمتمت ريما بحذر دبلوماسي:

-لم لا نرى بأنفسنا؟

ولكن شهاب أدى رفضه على أوجب وجه، وشخص وجه ريما الأبيض الساحر بملامحٍ ممتعضة منزعجة، وأعرب عن ذلك بحدة:

-ريما!! ألا تذكرين، اي مطعم إلا الطازج، أرجوكِ...أسوء تجربة خضتها في حياتي، الرائحة والطعام والطاولات والخدمات. كلهم سيئون، لم أرى في حياتي أسوء من خدمة هذا المحل، آنئذٍ مكثنا جلساء ساعة أو ساعتين حتى قدموا لنا الطعام، وبعد طيلة الانتظار نلناه سيئًا قديمًا صلبًا. أرجوكِ، لا أريد أن أكرر ما حصل لي بعدما تناولت أسوء وجبة في حياتي.

إلا أن ريما أصرّت على قرارها، وأشارت إلى قبائل الناس، وأكدت على ذلك برجاحة عقل:

-ألا ترى، التجمع أكبر دليل، ما فات مات.

فاستاء شهاب قليلًا، وما هذا التبدل العجيب!! ثم ما أمر الناس! مصفوفون وكأنهم جنودٌ في ساحة أو أرواحٌ تستقبل ساعة الحساب. على ماذا! مطعم رخيص رديء!!!

ذاك بلا شك كثيرًا ما ثار فضوله، تساءل "فرصة أخرى؟" وكان جائعًا متعبًا من التسوق، فقَبِل شهاب على مضض وأومأ رأسه كحجرٍ هبط من كتفيه، وحدث نفسه "لكنني لن أكثر من الأكل، وسأطلب شيئًا خفيفًا نظيفًا، لا يحتاج إلى قلي أو طبخ أو تحضير كبير، ولن أبالغ في الوجبة" وأعجبه التفكير فانقلب على رأيه السابق، ووافق، وتناولا موقفًا بعيدًا بين الناس. ندت عن ريما صرخة الفرح:

-سترى أنني لا أخيّب أملك.

وقفز الكلام إلى رأس شهاب "لكنك تخيبين أملي في كل يوم" ولكنه حفظه لنفسه.

وفي غضون نصف ساعة، كانا يجلسان إلى طاولة مربعة منزوية، احتلت موقعًا هادئًا محاذاة الشبابيك. لم يلتبس إليهما أنه المجلس ذاته للسابق.

كان المحل من الداخل يضيء بنور خافت مصباحي هادئ مضيفًا إلى أرضيته وجدرانه راحةً ساحرة مميزة. الزجاج يلمع كالقلائد، وركنه السفلي مزينٌ بسطورٍ من الفخار وأوعية من العاج، مُلئت بالعندليب والداليا. ثريا كريستال عملاقة تتوسط المطعم، تتدلى من السقف، وتزينه ببداعة لا مثيل لها. الطاولات مرتبة لا ينقصها تحريك أو جر أو إزاحة. الأرضية من الخشب الثقيل الداكن، والسقف حجارة مصقولة لامعة. تلعثم شهاب:

-لا أصدق!

بينما عيناه مفتوحتان على وسعهما. بلغهما موظفٌ طويل ببدلة سوداء فوق قميص أبيض، وقف على كتفه سعدان أسمر قصير بقبعة معقودة إلى الخلف وكنزة تكبره بمقاس أو مقاسين كتلك التي يرتدونها لاعبو كرة المضرب "البيسبول"

شغل السعدان انتباه شهاب بينما توخّت ريما الحذر، وبدلت مجلسها حتى كادت أن تلتصق بخطيبها. أدلى النادل الطويل:

-سعدون حيوان أليف.

تساءل شهاب بمزيدٍ من الاندهاش:

-سعدون!! وصلنا آخر زمان...

-سيدي! لا تحكم على الكتاب من غلافه.

فأخذت شهاب جلبة من القهقهات بينما جفلت ريما وتعلقت بذراع خطيبها.

-وماذا يفعل قردٌ برّيٌ في مكانٍ محترمٍ كهذا، أنسيتم أننا نأكل الطعام، لا نبتاع حديقة حيوانات!!

-سعدان سيدي. وأرجو أن تبدي له احترامًا.

فغالبت شهاب ضحكة كتمها بين خواصره.

-وماذا أيضًا، أُصَلّي له أم تريدني أن أركع!

فسكسك السعدان وأخرج دفترًا صغيرًا وقلمًا من الحبر الناشف. وجمدت نظرات شهاب وريما في الحيوان الناطق. عدّل النادل وقفته ونهض ظهره المنحني وصرخ برفعة وتكبر:

-اطلبا من سعدون ما يروق لكما.

رد شهاب عينيه في النادل المتعالي، وأشار بسبابته إلى سعدون:

-من المؤكد أنها مزحة!!

-على العكس سيدي، نحن لا نمزح مع أحد، وبالأخص الزبون.

-تردد إلى مسامعنا قبيل ذلك، أفعلًا يدير سعدون المطعم؟؟

-سيدي. سعدون فريد من نوعه. أنظر في الطاولات والمقاعد في ترتيبها وتنسيقها، أنظر في الزجاج في لمعانه وفي صلابته. أنظر يا سيدي في الثريا، وفي السقف، وفي الأرضية. سعدون يا سيدي ليس مديرًا فحسب، بل مرسولًا من السماء. اصغِ يا سيدي إلى الموسيقا، لطالما رأى سعدون أن الفن والحياة مزيجٌ كالماء الهواء. ولا تفوتوا يا سيدي عرض المساء على حضرتكم.

-عرض المساء؟؟

-لكلّ زمانٍ مزاج.

-هه...حكمة آخر عصر...

أثار الندل فضولهما، حتى أن شهاب عَدِل عن السخرية.

هبط سعدون إلى الطاولة وسار إلى ريما القلقة، ففزعت وصرخت:

-أبعدوا الحيوان عني!!!

وفي لمح البصر ركب سعدون كتفيها، وزرع فمه إلى خدها فقبلها، فاستحال الصراخ عياط فشخرات فضحكات. جذبت ريما السعدان الملعون إلى صدرها وخاصرته، ثم مسدت على رأسه. حملق شهاب المشهد، وطار الغضب في دماغه وثار ثائره وصرخ من الغيرة في سعدون:

-ابعد أيها الحيوان عنها الآن!!

لكن ريما نهته عن ذلك، وسرعان ما لثمت سعدون من رأسه، وناولته إلى النادل المتبسّم. نظر سعدون في شهاب ورفرف حاجبيه بغلاظة وسخرية، فأنشأ شهاب يقول:

-لم ينقصنا إلا حيوان قليل تهذيب.

فضحكت ريما واغتبط النادل وسكسك سعدون. سجل سعدون طلبياتهم ورحل والنادل بصحبته لا هو بصحبة النادل.

خاطب شهاب ريما:

-أفقدني عقلي.

-أتغار عليّ؟

-معاذ الله...ألا تعلمين أن الحيوانات أكبر ناقل للأمراض.

وأومأت ريما بينما غالبت في صدرها ضحكة انعكست في بُساط عينيها.

حدث شهاب نفسه مطيلًا نظره في الأفق "لمسة نبي!! ماذا جرى لها، مذ دقائق كادت تنصهر بجسدي من الخوف...كان الأجد بي رفضُ الدخول منذ البداية...لكنني دائمًا أرتكب الخطأ نفسه"

وفكر شهاب في العدول عن المطعم فقط لموقف بسيط جدًا لا مُدعاة للوقوف عند أمره. رجى فشل سعدون، وتمنى ارتكابه الأخطاء والعثرات، فخطأٌ واحدٌ يكفيه ليثبت حجته، وقصد طلبه صعبًا عمدًا في ذلك، وطلب منهم إحضار الطعام بأسرع وقت.

وفي دقائق انتشرت الأطباق على المائدة، كالسحر أو الأعجوبة، واستحالت المدّة البيضاء لوحة فنية ملونة.

كان الشرر يتطاير من عيني شهاب، والدهشة جمرُ الشهاب. فسحرٌ نُفخ في مائدة الطعام فآلت ألوان وأشكال، صنوفٌ وضروبٌ عديدةٌ من الطعام.

استولى على شهاب الغضب، وكتمانه زاد من شعلته. صفق سعدون فحضر زميلان من النُدُل بأواني نحاسية وسطولٌ من الفخار أُنصبت إلى أكتافهم العريضة. أدى الزميلان التحية بعدما نشرا الأطباق على صفحة الفراش. تحلق البخار المدفوع منها حول المائدة الشهية الطازجة. انطلق صوتٌ من المجاور:

-ينصر دين سعدون!!

وتلته جلبة من القهقهات وحفلٌ من التصفيق وجوقةٌ من التصفير.

المهتوف والمعبود والمتوّج سعدون. همس شهاب:

-طفح الكيل!!!

وابتدأ بالطعام فإما عيبٌ يجده الآن أو هزيمةٌ لعينةٌ نكراء. فَرَد ذراعيه كالأخطبوط، وأخذ يتسقط من الوجبات ويترشف منها جميعها، لكن الطعام فاق التصورات والتوقعات، ومذاقه كمذاق حبات السكاكر، حتى أن شهاب لم يستوقف ثانية حُسنًا بالأخلاق أو مجاملة أو مراعاة لبطنه. جعل يجرب كل شيء، فخالته ريما مجنون أو معتوه أو فقيرٌ مُعدم. وكانت مسرورةٌ مقبلةٌ كما هو إنما بحرصٍ من العيون والأنظار. قالت:

-ما كنت متوقعة!!

رفع شهاب إليها عينيه بينما كانت أسنانه مشغولة بقضم قطعة من اللحم المغلي، وسالت قطرةٌ من الشحمِ على زاوية فمه، وقال بصوتٍ اختلط باللعاب:

-أَشبعتِ؟

فتناولت كأس اللبن، ورشفت منه رشفة وقالت:

-من يراني معك...يحسبني مجنونة أو مختلة عقليًا.

فابتسم الاثنين.

تقدم سعدون مجددًا بصحبة النادل الطويل. أفرغ الطاولة من الأطباق، واعتنى بتنظيفها عناية الأم لوليدها ورُتبت بما لا يزيد عن دقيقة. ثم صدعت موسيقا صاخبة، أثارت حماس الركاب، وطُلب من الزبائن الانضمام لسعدون في المنتصف من أجل الرقص، وفي أول دقيقة ما تجاسرا على التدخل وتخفيا في مجالسهما عن أعين الناس حتى ما بقيت إلا مطارحهم شاغرة، فصارا فرجةً للذين يرقصون وللذين يهتفون ويصفقون ويهللون، فانسجما مُغلبين على أمرهم، وسرعان ما تبدلت الأدوار، وانتقلت الأضواء إلى ريما وشهاب. كان ذلك أجمل مساء طاب على كليهما.

-سعدون يا لك من شقيّ.

ودع شهاب سعدون والطاقم، يومٌ ويا ليته كل الأيام...

أغلقت ريم السماعة، صفق رغيد الباب خلفه، تساءل بتعجب بعدما رمى زوج حذائه وتقدم إليها:

-ألم ترسلي نعيم إلى المدرسة؟!

قطبت ريم حاجبيها، واعتمرتها الشفقة، وتولاها الحزن، وبصوت خفيض قالت معذورة:

-اتصلوا بي من المدرسة...طلب العودة، بكى كثيرًا...

فزّم رغيد شفتيه إلى بعضهما، وصكّ أسنانه، وعصر على قبضة يده. تابعت ريم:

-تلقى بعض الإساءة من التلاميذ...كفى يا رغيد، نعيم لا ينتمي...

فقاطعها رغيد وصرخ:

-ريم!!! لا تحاولي.

فهمست ريم:

-أنتَ تعلم جيدًا...ولدنا ليس كبقية الأولاد.

-بل أفضل منهم جميعًا.

-أنا لا أقول أسوء أو أفضل...لا أقارنه بغيره...لكنك لا تستطيع أن تنكر أنه ينتمي إلى فئة أخرى من الناس!

قال رغيد ساخرًا:

-إذًا نرميه في بيئة خاصة وليفعلوا به ما يحلو لهم؟!! وماذا تقترحين أيضًا؟؟ أن نسلّم تربيته أيضًا لعائلة خاصة بأمراض...

وصمت. فقالت ريم بحدة:

-المتخلفون عقليًا...إلى متى يا رغيد ستبقى مُنحازًا لأفكارك.

-وترين أنني سعيدٌ بذلك؟؟!

-عليك الاعتراف بالحقيقة يا رغيد. كفاك عنادًا...لن يصيبك من ذلك إلا ألمًا في الرأس. وَلَدُنَا ليس طبيعيًا.

فصرخ رغيد:

-ريم!!! إياك وتكرار ذلك مجددًا...

فرحلت ريم متأففة تضربُ كفًا بكف.

فساد صمتٌ ثقيلٌ مُزعج. رغيدٌ تُقطّع صدره أسماك قرشٍ مفترسة "ما شعور نعيم يا تُرى؟ أمُدركٌ أم لاء...حزينٌ على نفسه أم هو طفلٌ لا يُدرك معنى الكثير من الحياة!!!" تساءل رغيد ثم همس:

-إلى متى؟

وكل الأفكار المكررة لا جدوى منها، لو صرخ كالمجانين في وجه الناس:

-يا حيوانات ابني طبيعي، ابني مثل باقي الناس.

من عساه يصدقه، هذا إذا صدق حقيقةَ ما يقول هو. وترددت عليه مرات صورٌ من العيون ترقبه في الظلام، ونظراتِ الأسف وابتسامات الشفقة. كلها زائفة يا ليتها نظراته هو لا نظراتهم. يا ليته المتخلف عقليًا، فعديم الشعور عديم الإحساس، وضحكةُ سخريةٍ أو ابتسامةُ شفقة لا تعنيه أبدًا حينها...

دلف رغيد باب الغرفة بينما ولده نعيم مشغولٌ بلُعبٍ من البلاستيك. هتف رغيد:

-بابا عاد إلى المنزل!!

-بابا...بابا.

-حبيب بابا...ماذا تُراك تفعل؟

حول نعيم بصره إلى حائطٍ رُسم عليه بالألوان، فشخص رغيد عينيه في الحائط لكنه لم يتبين إلا خرابيش. تساءل:

-ما تلك الرسومات يا عزيزي؟

فردد نعيم من بين أسنانه:

-مطعم...مطعم...مطعم...سعدون...مطعم...ريما...شهاب...شهاب...سعدون...شهاب...مطعم.

دقق نعيم النظر " سعدان ومجموعة بشر...ومطعم" أحقًا رسم ولده كل هذا؟؟ فتساءل مجددًا:

-وما تعني تلك الرسومات يا حبيبي؟

-مطعم...مطعم...سعدون...سعدون...ريما...مطعم...شهاب...سعدون...سعدون...مطعم.

تنهد رغيد بحرقة قلب، وقبل ولده من جبينه وقال:

-أحسنتَ صنيعًا يا ولدي...!

ثم غادر الغرفة...

...

تمت بعون الله

اكتب لي رأيك في القصة في التعليقات (المراجعات الخاصة بالمكتبة) أو اكتب لي شخصيًا :) سوف أكون مسرورًا جدًا

أجب على أي سؤال من الأسئلة أو على جميعها في التعليقات

ما هي العبرة التي استخلصتها من القصة؟

كيف يمكن تطبيقها في المستقبل؟

هل لامستك شخصية من شخصيات القصة؟

الأهم من كل ما سبق. هل أعجبتك القصة واستمتعت بها؟

حسابي على الانستغرام 🟣

حسابي على الفيسبوك 🔵